تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب لوجيه الدين باكثير الحضرمي

« عرض ودراسة وتقويم »

بقلم : الدكتور محسن غياض عجيل

ألف سنة مضت ولازال أبو الطيب المتنبي يملأ الدنيا ويشغل الناس ويثير من اعجابهم وخصومتهم ما لم يثره كثير من الاحياء ، وكثيرون هم الذين التمسوا لانفسهم الخلود بالكتابة عنه وعن شعره ، ولازال الرجل أكبر من الذين كتبوا عنه وأنفقوا السنين الطوال فى دراسته وشرح اشعاره .

وفي مكتبة الحرم المكي مجموعة عن المتنبي رقمها (٢٥٥ أدب) وهي تضم أربع رسائل طبعت احداها وهي مناظرة المتنبي وأبي علي الحاتمي وحققنا ثانيتها وهي (الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي) لابن جني وبدأنا تحقيق الثالثة وهي (مختصر أبيات معاني المتنبي) لسليمان المعرى ، وبقيت الرسالة الرابعة وعنوانها (تنبيه الاديب على مافي شعر أبى الطيب من الحسن والمعيب). هكذا ذكر العنوان في الصفحة الاولى من الرسالة وهكذا ذكره بروكامان (١) وأشار إلى وجود نسختين منها احداهما فى بطرسبرغ والثانية في مكتبة الاسكوريال ، وفي دار الكتب المصرية نسخة أخرى برقم (٥٤٣ أدب) وقد كتبت سنة ١٢٨٥ هـ (٢)

---

١ تاريخ الادب العربي ٨٦/٢

٢ فهرس دار الكتب المصرية ٦٨/٣ .

ولكن فهرس دار الكتب يضيف إلى العنوان كلمة اخرى فيذكره باسم : (تنبيه الاديب الغريب على مافى شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب) وكلمة الغريب هذه المقحمة على العنوان اقحاما تبدو زائدة لا معنى لها .

أما نسختنا هذه الموجودة في مكتبة الحرم المكي فقد كتبت كما جاء في الصفحة الاخيرة منها (بتاريخ يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة الحرام سنة ١٠٦٣ هـ) (١)

ونحن لانعلم شيئاً كثيراً عن المؤلف غير ما ورد من تعريف موجز في الصفحة الاولى من المخطوطة وانه (الشيخ الامام العالم العلامة الحبر العمدة الفهامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله باكثير الحضرمي المكي الشافعي القاضي بجدة المعمورة) .

وقد ذكر بروكلمان أنه توفي سنة ٩٣٠ هـ ، وأنه أهدى كتابه هذا لشريف مكة سنة ٩٣١ ، (٢) وهو تناقض غريب كما ترى اذ كيف يهدى كتابه سنة ٩٣١ ويكون قد مات قبل ذلك بسنة أو تزيد ؟ وقد وقع الاستاذ عمر كحالة (٣) بمثل هذا الخطأ فيما نقله عن بروكلمان .

وقد أهدى المؤلف كتابه لشريف مكة (سيدنا ومولانا السيد الشريف الحسيب النسيب نجم الدنيا والدين محمد أبي نمي بن بركات بن محمد بن بركات) (٤)

وانا اعتقد أن هذه النسخة من المخطوطة هي اقدم النسخ على الاطلاق فقد كتبت بعد وفاة المؤلف بنيف ومائة سنة فقط ولعلها نقلت عن النسخة الأم التي كتبها المؤلف وهي من مخطوطات الاشراف التي أهديت لمكتبة الحرم المكي عند إنشائها وعلى الصفحة الاولى من المجموعة اختام بعض متملكيها منهم .

---

١ تنبيه الاديب ٨٩ .
٢ تأريخ الادب العربي ٢/٨٦
٣ معجم المؤلفين ١٣/١٦٠ .
٤ تنبيه الاديب : ١٣

والكتاب يقع في تسع وثمانين صفحة متوسطة القطع كتبت بقلم معتاد واضحة الخط سهلة القراءة ، وليس على النسخة إشارة لاسم ناسخها . وقد بدأها مؤلفها بمقدمة في التحميد باسلوب غلب عليه السجع والزخارف اللفظية . ثم شرح سبب تأليفه للكتاب بعد أن رأى كثرة اختلاف الناس وخصومتهم في المتنبي (ولم يكن الاجماع عليه منعقد ولم اره سالما من طاعن أو معترض أو منتقد أردت ان اخبر خبره لا بالتقليد ، بل بالا جتهاد ، وأنظر أحقاً أم باطلا قول الذين سلقوه بألسنة حداد) (١)

واذن فنحن أمام كتاب في النقد يريد صاحبه به أن يكون حكما عدلا بين أنصار أبي الطيب وخصومه ، وهو لاجـل ذلك يشمر عن ساعد الجد ويكثر الدرس والقراءة ويمعن النظر فيما اختلف الناس به ، وتكون نتيجة ذلك كله أنه وجد أبا الطيب (ثبير القريض الذى لايزحم وبدره الذى ينجلي به ليله الأسحم ورأيت غالب مافى ديوانه من القصائد محاسن وغرر وانما يعاب شعره في بعض القصائد متفرقاً شذر مذر) (٢) .

ثم انه ذكر خطته ومنهجه فى تأليف كتابه هذا فقال انه استخرج ما يعاب من شعر المتنبي أولا ثم (جمعتــه أحسن جمع ووضعته ألطف وضع وذلك انما كان من قصائده سالما من الانتقاد وخاليا من الاعتراض والطعن والايراد ضربت عنه صفحا وطويت كشحا وما أعيب من شعره أو بخس من دره رتبته على حروف المعجم فأذكر في ذلك الحرف مطلع القصيدة المعيبة بعض ابياتها وأذكر العيب ومحله منها وسببه من تنافر أو غرابة أو تعقيد ثم اذكر بعد ذلك العيب مافيها من المحاسن ، وكل قصيدة فيها عيب كان رؤيه على ذلك الحرف ذكرتها فيه ، وكلما أوردت بيتا أمطت عن وجه معانيه النقاب وذكرت معه ما يحتاج اليه من لغــة وإعراب) (٣)

---

١ المصدر نفسه : ٢ .
٢ تنبيه الاديب : ٢
٣ المصدر السابق : ٢ ـ ٣

وفي النص المتقدم شرط المؤلف على نفسه شروطا ووضع لكتابه خطة واضحة المعالم فهو يجتهد ولا يقلد ويدع القصائد السالمة من العيب جانبا لايذكرها ولا يتعرض لها ، وإذا ذكر بيتا معيبا من قصيدة ما أتبع ذلك بذكر ما يستحسنه من ابياتها ، وقد رتب ذلك كله على حروف المعجم حسب قوافي الابيات ، وهو بعد ذلك كله اذا أورد بيتا كشف معانيه وذكر مافيه من لغة وإعراب .

ثم ذكر انه رتب كتابه على مقدمة وبابين وخاتمة ، وتحدث في المقدمة عن حدّ الفصاحة وبيان معرفتها ، أما الباب الأول ففي ما وضع الكتاب لأجله (من المحاسن المستملحة والمعايب المستقبحة) وتحدث في الباب الثاني (عن سرقاته وسرقات الشعراء منه) وجعل الخاتمة في الحديث عن محاسنه (من ارسال المثل وعقد الحكم) . ثم تلا ذلك نبذة موجزة عن أبي الطيب وأخباره ليس فيها جديد ، وانما هي ضرب من الكلام المعاد المستغنى عنه وقد ذكر بيتين للمتنبي ولم يشر إلى المصدر الذى نقلهما عنه وهو معاهد التنصيص للعباسي وإنما قال :

(ومن شعره مما ليس في ديوانه ، بل يروى عنه بسند صحيح متصل به بيتان هما :

أبعين مفتقر اليـــك نظـرتني ... فأهنتني وقذفتني من حالـــق

لست الملوم أنـــا الملوم لأنـــني ... أنزلت آمالي بغير الخالق (١)

وأنا شديد الشك في نسبة هذين البيتين لأبي الطيب فليسا من جنس شعره في شيء . ثم بدأ الباب الأول من كتابه بقافية الهمزة وختمه بقافية الياء وبينهما ما جاء من قواف على حروف الالف والباء والتاء والذال والدال والراء والزاى والسين والشين والعين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء .

أما بقية القوافي مما جاءت على غير هذه الحروف فقد أهملها ولم يعرج عليها ولم يذكر شيئا منها .

١ تنبيه الاديب : ٥ ، ومعاهد التنصيص : ٣١/١

والباب الأول هذا أهم أبواب الكتاب (وهو ما وضع لأجله) وقد استغرق إثنتين وخمسين (١) صفحة من صفحات الكتاب ، وقبل الحكم على الكتاب وتقويمه ، وبيان ما التزم به المؤلف مما شرطه على نفسه في مقدمته وما خالفه نلتمس القارىء الكريم أن نقدم بين يدى ذلك نصوصاً مختارة من الباب الاول لنقرب له صورة الكتاب ولتكتمل نظرته اليه ثم ليكون بعد ذلك على بينة مما نقوله من نقد الكتاب وتقويمه ، وهو بعد ذلك كله أمر تلزمنا به الامانة العلمية وتفرضه علينا آداب التعريف بكتب التراث ونقدها .

النص الأول : (٢)

« حرف الهمزة »

القصيدة التي مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقبـــاء ... اذ حيث كنت من الظلام ضياء

وأقول من عيوب هذه القصيدة قوله :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حـــــــواء

هذا البيت سيئ النظم متكلف فيه تعقيد وحذف وتقديم وتأخير وحشو وسوء أدب وتهور كما يظهر من حل معناه ومن محاسنها ، :

وكذا الكريم اذا أقــام ببلـــــدة ... ســـال النضار بها وقام المـــاء

النص الثاني : (٣)

« حرف الباء »

مثلا :

فديناك من ربع وان زدتنا كربا ... فانك كنت الشرق للناس والغربا

١ المصدر السابق : ٨ـ٦٠
٢ المصدر نفسه : ٨
٣ تنبيه الاديب : ١١ .

هذا المطلع حسن لو سلم من لفظ الكرب
ومن عيوبها قوله :

عليم باسرار الديانات واللغـــــى   له خطرات تفضح الناس والكتبا

فانه جمع لغة على لغى وهو من الجموع الغريبة التي لم تسمع وانما جمعها لغات.
والقصيدة كلها غرر ومحاسن ، ومن محاسنها قوله :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلبــت   على عينه حتى يرى صدقها كذبا

النص الثالث : (١)

القصيدة التي مطلعها :

ضروب الناس عشــاق ضروبا   فأعــذرهم أشفّهـــم حبيبـــا

من عيوبها قوله في المديح :

قسا فالاسد تفزع من يديـــــه   ورقّ فنحن نفزع أن يذوبــا

فان لفظ رقّ وذاب من معاني الانوثة ينبغي أن يتنتزه الممدوح عن المخاطبة بمثلها من الركاكة والسفسفة وألفاظ السوقة ومعانيهم .
ومن محاسنها قوله :

عرفت نوائب الحدثان حـــــتى   لو انتسبت لكنت لها نقيبــــا

النص الرابع : (٢)

« قافية اللام »

القصيدة التي أولها :
لك يا منازل في القلوب منــــازل   أقفرت أنت وهنّ منك أواهل

---

١ المصدر نفسه : ١٦ .
٢ تنبيه الاديب : ٣٩ ـ ٤١

من عيوبها :

ليزد بنو الحسن الشراف تواضعا هيهات تكتم في الظلام مشاعل

فجعل قافية البيت الذى لايحسن إلاّ بها هذا اللفظ العامي المبتذل .

ومن محاسنها قوله :

وأنا الذى اجتلب المنيــة طرفــه فمن المطالب والقتيل القاتــل

يقول طرفي جلب إليّ المنيةبالنظر فممن أطلب دمي وأنا قتلت نفسي .

النص الخامس : (١)

« قافية الميم »

القصيدة التي يهجو بها ابن كيغلغ :

لهوى القلوب سريرة لا تعلـــم عرضا نظرت وخلت أني أسلم

من عيوبها :

وإذا أشار محدثــــا فكأنمـــا قرد يقهقه أو عجوز تلطـــطم

فانه سلك في هذا البيت مسلك العامة في الهجاء لارتكابه فيه الالفاظ الدنية والمعنى المستهجن وكان قادرا على أن يأتي في هذا الباب بما هو ابلغ من الكلمات المبتذلة التي لم يرض بها من دونه من الشعراء .

ومن محاسنها قوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبــه الـــدم

أى لا يسلم للشريف شرفه من أذى الحساد والمعادين حتى يقتل حسّاده واعداءه فإذا اراق دماءهم سلم شرفه لانه يصير مهابا فلا يتعرض له .

---

١ المصدر نفسه : ٥٤ .

وبعد : فتلك خمسة نصوص اخترتها من اهم أبواب الكتاب ووضعتها بين يدي القارىء ليكتشف من خلالها ضحالة الكتاب ومخالفة مؤلفه لما شرطه على نفسه من شروط في مقدمة الكتاب ، ولما اخذ به نفسه من منهج في أوله .

فلم يجتهد برأيه كما زعم ولم يقدم لقارئه جديدا وإنما كان مقلدا للذين سبقوه، وسارقاً لهم . نقل عنهم جميع ما عابوه على أبي الطيب فإذا جاء للبيت المستحسن لم يقل فيه شيئا ولم يشر إلى موضع الحسن فيه وسببه ، ولربما شرح البيت شرحاً ساذجاً يذهب بروائه ورونقه ، ولم يذكر معه (ما يحتاج إليه من لغة وإعراب) ، وكان قد زعم أنه سيفعل ذلك في أول كتابه .

ورب أبيات كثيرة مر بها مكتفيا بشرحها فقط ، ولم يذكر ما فيها من عيب مستقبح أو حسن مستملح ، وكان لأجل ذلك وضع كتابه وأراد ان يكون فيه حكما فيصلا بين المتخاصمين في أبي الطيب فلم يفعل شيئا غير سرقة ذلك الباب — وهو واسطة عقد الكتاب — من يتيمة الدهر للثعالبي ، ثم لم يزد على أبي منصور شيئا ذا غناء ، وإنما شركه في كل ماعابه على ابي الطيب . ككثرة استعماله لذا (١) وقبح بعض مطالعه ، ولم يخالفه في إختيار الأبيات المعيبة ولا في بيان وجوه العيب بها . ومن ذلك قول المتنبي :

١ — قسا فالاسد تفزع من يديه	ورقّ فنحن نفزع ان يذوبا (٢)
٢ — عليم بأسرار الديانات واللغى	له خطرات تفضح الناس والكتبا (٣)
٣ — فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا	قلاقل عيس كلهن قلاقل (٤)
٤ — عظمت فلما لم تكلم مهابة	تواضعت وهو العظم عظما عن العظم (٥)
٥ — فتى الف جزء رأيه في زمانه	أقلّ جزيئ بعضه الرأى أجمع (٦)
٦ — لو لم تكن من ذا الورى اللّذ منك هو	عقمت بمولد نسلها حواء (٧)

---

١ تنبيه الاديب : ٨ ، يتيمة الدهر ١/١٧٩ .
٢ تنبيه الاديب : ١٦ ، يتيمة الدهر ١/١٧٦ .
٣ تنبيه الاديب : ١١ ، يتيمة الدهر ١/١٧٥ .
٤ تنبيه الاديب : ٤٦ ، يتيمة الدهر ١/١٨١ .
٥ تنبيه الاديب : ٥٠ ، يتيمة الدهر ١/١٨١ .
٦ تنبيه الاديب : ٣١ ، يتيمة الدهر ١/١٧٠ .
٧ تنبيه الاديب : ٨ ، يتيمة الدهر ١/١٧٠ .

٧ — فتبيت تسئد مسئدا في نيهـــا إسآدهـــا في المهمة الانضـــاء (١)
٨ — لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بعرانا (٢)
٩ — وفاؤكما كالربـــع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه(٣)
١٠ — أحاد أم سداس فـــي أحـــاد لليلتنا المنوطـــة بالتنـــاد (٤)
١١ — أوه بديل من قولتي واهـــا لمـــن نأت والبديل ذكراهـــا (٥)
١٢ — كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيـــا (٦)
١٣ — هـــذى برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت ومـــا شفيت نسيســـا(٧)
١٤ — ملث القطر اعطشهـــا ربوعا والاّ فأسقهـــا السم النقيعـــا (٨)

ثم سطا على كتاب الثعالبي مرة أخرى فنقل عنه بابه الثاني برمته نقلا حرفيا وقسمه كما فعل الثعالبي من قبل إلى قسمين ، جعل الأول منهما في سرقات أبي الطيب من الشعراء الذين سبقوه كعمرو بن كلثوم وأبي تمام وبشار ومسلم والفرزدق وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز ، وقد ذكرهم الثعالبي من قبل ، وذكر مواضع السرقة من أشعارهم (٩) . ثم سرق منه قسمه الثاني في بيان سرقات الشعراء من المتنبي كأبي الفرج الببغاء والمهلبي والصاحب والسرى الرفاء والخوارزمي والبستي والزعفراني ، وكل ذلك ذكره الثعالبي ايضاً (١٠) لم يزد عليه صاحبنا غير مقدمة للباب الثاني تحدث فيها عن السرقات وأقسامها ، وانواعها وما سرقه الجاهليون والإسلاميون والعباسيون بعضهم من بعض ، وما وقع لبعض الشعراء المتأخرين من (توارد الخواطر) وقصص ذلك كله .

---

١ تنبيه الاديب : ٨ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٩
٢ تنبيه الاديب : ٥٥ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٨ .
٣ تنبيه الاديب : ٥١ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٢
٤ تنبيه الاديب : ١٨ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٣ .
٥ تنبيه الاديب : ٥٨ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٢ .
٦ تنبيه الاديب : ٥٩ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٢ .
٧ تنبيه الاديب : ١٩ ويتيمة الدهر ١ـ١٦١ .
٨ تنبيه الاديب : ٣٣ ويتيمة الدهر ١ـ١٦٣ .
٩ تنبيه الاديب : ٧٧ — ٨٠ويتيمة الدهر ١٤٨/١ — ١٥٤ .
١٠ تنبيه الاديب : ٨٠ — ٨٢ ويتيمة الدهر ١٤٤/١ — ١٤٨ .

وقد استغرق هذا الحديث ست عشرة صفحة (١) من الكتاب وهو استطراد لامبرر له ولا علاقة بموضوع الكتاب ، وليس جديدا طريفاً مبتكراً ، وقد أفاضت كتب النقد من قبل في حديث السرقات الشعرية وما يتصل بها (٢) .

ومثل هذا الاستطراد المعيب ايضاً ما ذكره المؤلف من قصص بعض الشعراء وما وقع لهم مع ممدوحيهم بسبب قبح مطالعهم أو عدم مشاكلتها للمناسبة التي قيلت فيها ، ومن ذلك ما وقع لجرير وذى الرمة مع عبد الملك ، ولأبي النجم العجلى مع هشام وللبحترى مع يوسف بن محمد ولأبي المقاتل مع الداعي العلوى ولاسحق الموصلي مع المعتصم (٣) ، وهي قصص معروفة قلّما يخلو كتاب من كتب الأدب من ذكرها والتملح بها . (٤) .

ومن ذلك أيضاً ما أطال فيه واستطرد من قصص الشعراء الذين احتالوا في إزالة ما عرض لبعض ممدوحيهم من التطير نتيجة لسقوط خيمة أحدهم أو عصاه أو وقوع زلزلة في بلده ، وما إلى ذلك . (٥)

وقد زادت هذه القصص الكثيرة وهذا الاستطراد المعيب الكتاب سوءا على سوء وأخرجت المؤلف في أحيان كثيرة عن الموضوع الذي وضع الكتاب له .

ثم جاءت خاتمة الكتاب بعد ذلك ضغثا على أبالة ، وقد فضح المؤلف بها نفسه وغرّ غيره ، فقد جعلها في الحديث عن براعة المتنبي (في إرسال المثل في نصف بيت وفي مصراعي البيت وفي بيت كامل) (٦) وعن محاسنه في عقد الحكم

---

١ تنبيه الاديب : ٦١ ـ ٧٧ .

٢ انظر دلائل الاعجاز للجرجاني : ٣٠٤ واسرار البلاغة له : ٢٢٨ والعمدة ٢/٢١٥ .

٣ تنبيه الاديب : ١٨ ـ ٢٠ .

٤ انظر : العمدة لابن رشيق١ـ١٤٨ ، مروج الذهب للمسعودي٤ـ٢١٥ .

٥ تنبيه الاديب : ٤٢ ـ ٥٠ .

٦ المصدر السابق : ٨٢ ـ ٨٥ ..

(وقد عقد أبو الطيب لارسطو طاليس الحكيم حكما كثيرة فأحببنا إيراد شيء منها لتتم بها الفائدة) . (١)

وكان أن سرق المؤلف من يتيمة الدهر جميع ما ذكره الثعالبي رحمه الله عن امثلة المتنبي وإرسالها في البيت ونصفه ومصراعيه . (٢)

ولم يكتف بذلك وانما أغار على الرسالة الحاتمية فلم يغادر قولا لارسطو ولا بيتا للمتنبي نظم في معناه مما ذكره أبو علي الحاتمي إلاّ وأثبته في كتابه (٣) دون الإشارة لأبي علي ولرسالته .

وبعد . فان المؤلف لم يوفق في شيء من كتابه غير ما ابتكره من عنوان له ، وهو عنوان شديد التشويق والإثارة ، ولربما قرأه بعض أهل الأدب فتصور ما تحته كتابا جليلا من نفائس الكتب ونوادر المخطوطات ثم عقد العزم على تحقيقه ونشره على الناس وتكلف في ذلك ضروبا من المشقة والنفقة الموجعة في الكتابة لاقطار الأرض في طلب مخطوطات الكتاب وتصويره ، فإذا استوت لديه بعد طول إنتظار وترقب وقرأها فأحسن القراءة وجدها كخضراء الدمن يخفي جمال منظرها سوء مخبرها ، فعاد من بعد ذلك غضبان أسفا .

ونرجو ان نكون قد وفرنا عليه كل ذلك أو بعضه فيما قدمنا من تعريف بالكتاب وتقويم له .

ولعل باكثير الحضرمي رحمه الله أراد أن يلتمس لنفسه شيئا من خلود الذكر فأحب أن يقرن اسمه باسم شاعر العربية الاعظم الذى لازال شعره ملء الاسماع والافئدة فألف كتابه هذا الذى كان فيه شديد الجرأة على أبي الطيب إذ زعم أنه سيكون الحكم الفيصل بين المختصمين فيه . فأعيته الوسائل وتقطعت به الاسباب ولم يجد غير السرقة من القدماء ولهم دونه فضل السابق الراشد المجتهد ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه فوقف عنده .

١ تنبيه الاديب ٨٧
٢ يتيمة الدهر : ١/٢١٤ ـ ٢٢٨ .
٣ تنبيه الاديب : ٨٧ ـ ٨٩، وانظر الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية)